افتتاحية العدد

رسالتانِ ... مع وافِر المحبّةِ والاحترام

كانت النيّةُ أن يدور الكلام في مقدّمة هذا العدد من مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة حول أمرين اثنين: يكون أوّلهما رسالةَ تذكيرٍ بالخليل بن أحمد الفراهيديّ لما قدّمه إلى أمّته العربيّة وإلى الإنسانيّة، ويكون ثانيهما رسالة شُكرٍ عِرفاناً لجميلٍ أسداه إلى المجلّة أحد أعلام الخطّاطين العرب السوريّين المعاصرين.

ولكنّ أمْراً عارضاً يَبْدُو جَلَلاً في رأي كثيرينَ من الزّملاء أعضاء الهيئة التدريسيّة، جعلَ الكلام يتحوّل من رسالةِ التّذكيرِ بالخليل بن أحمد إلى رسالةٍ معبِّرةٍ عمّا لدى أولئك الزّملاء، وهو شعورُهم حولَ قرارٍ يقتضي أنّ التّرفيعَ إلى مرتبةٍ أعلى مرتبطٌ بنَشْرِ أبحاثٍ في مجلاّتٍ **عالميّةٍ** محكَّمَة؛ وقبلَ الخوضِ في هذا الشّأن لا بدَّ من القول: إنّ معظم ما سيأتي من الكلام إنّما هو نقلٌ لآرائهم وتصويرٌ لمخاوفهم، معَ ما يُكِنّونَه من التّقدير والاحترام لكلّ مَنْ كانوا وراءَ هذا القرار، لِعِلْمِهم أن الغايةَ منه نبيلَةٌ، وللمكانةِ الّتي يُمثّلونها.

يكادُ مَن يستمعُ إلى ما يدورُ من الكلام بين الزُّمَلاءِ يشعُرُ بأنّ الأمرَ وصلَ إلى حالٍ يَصِحُّ وَصْفُها بأنّها حالٌ يختلطُ فيها التّعجُّبُ والخَوْفُ والاستنفار؛ فما مِن أحَدٍ منهم إلاّ وقد بادَرَ إلى تقديمِ بحثٍ أو أكثر، أو البدءِ بكتابةِ بحثٍ أو أكثَر، مع طلب التّعجيل في إرساله إلى المُحَكَّمين العلميّين عسى أن يُرَفَّعَ قبل أن يصير ذلك القرار نافذاً، وما مِن أحدٍ منهم إلاّ وقد سيطر عليه الخَوفُ من ألاّ يُسْعِفَه الوقتُ لترفيعه قبلَ ذلك، وما مِن أحدٍ منهُم إلاّ وقد تَعجّبَ من المعاني الّتي يَحْمِلُها القرارُ.

فممّا باحَ به الزُّملاءُ أنّ من معاني القرارِ الضِّمنيّةِ أنّ فيه استعظاماً لِما لدى الآخَرين، ولاسيّما إذا كان المقصود بوصفِ (عالميّة) أن تكون المجلاّت لا تنشر البحوثَ إلاّ باللُّغات الأعجميّة؛ وإذا كان ذلك هو المقصود فإنّ مَعنى ذلك أنَّ مُعظَمَ مَن لم يُكْمِلوا دراساتهم العليا في

الدُّول النّاطقة بتلك اللّغات –إن لم يَكُن جميعُهُم- سيكونون مضطرِّينَ إلى أن يَكْتُبُوا أبحاثَهم بالعربيّة ويلْجَؤوا إلى مَن يُتَرْجِمُها لهم إلى تلك اللُّغات، وهو ما سيفعلُه الباحثون الناطقون بتلك اللّغاتِ لو اشترطَتْ عليهم جامعاتُهم أن ينشروا أبحاثَهم بلُغةٍ أُخرى غيرِ لغاتهم.

ومن معاني ذلك القرار أنّ الأبحاث المنشورةَ في المجلاّت العربيّة لَنْ تُعَدَّ منشورةً في مجلاّت عالَميّة، حتّى لو كانت تلك المجلاّتُ مُتَمتِّعَةً باعترافِ الآخَرين وكانت مُصنَّفَةً دَوْليّاً،كمجلاّتِ جامعةِ دمشقَ أو غيرها من المجلاّت العربيّة.

ومن معانيهِ أنّ رؤساء تحرير مجلاّتنا وأعضاءَ هيئات التّحرير والمستشارينَ العلميّين فيها والمُحَكَّمينَ الّذين يُجيزُونَ الأبحاث المقبولةَ أو يَرُدُّونَ غيرَ المقبولةِ لا يُؤَدُّون واجبَهم كَما يجب، معَ أنَّهم مُؤتَمَنُونَ على إعدادِ رسائلِ الدّكتوراه والماجستير إشرافاً ومُناقَشةً، وعلى ترفيع أعضاء الهيئة التّدريسيّة في جامعاتنا وغيرِها من الجامعات.

ومن معانيهِ أنّ الباحثَ إذا لم يكن متمكّناً من تلك اللُّغات الأعجميّة سيكون مُكْرَهاً على دفعِ مبالغَ من المال إلى مَن يُتَرْجِمُ بحثَه، ومبالغَ أُخرى للبَريدِ الخارجيّ، ومبالغَ ثالثةً إلى المجلّةِ إذا كانت لا تَنْشُرُ الأبحاثَ إلاّ مقابلَ مبالغَ من المال؛ وفي ذلك ما فيه من أعباءٍ وخسائرَ ماليّةٍ لا تَخفى على أحد.

ومن معانيهِ إذا كُتِبَتِ الأبحاث باللُّغات الأعجميّة وقُبِلَتْ للنّشرِ في الدُّوَل الّتي تَصْدُرُ بها تلك المجلاّت أنَّ ثِمارَ جهودِ باحثينا في مختلف الاختصاصاتِ قَدْ قُدِّمَت إلى تلكَ البُلْدانِ على أطباقٍ من ذهبٍ لتُفيدَ منها، مع أنَّ مَنْ سَقى شجرَتَها واعتنى بها ورعاها أحدُ الباحثين منّا، وفي ذلك خسائرُ لا تَخْفى على أحدٍ أيضاً.

هذا، ولعلَّ لدى الزُّملاءِ أعضاء الهيئة التدريسيّة من الكلامِ ما هو أكثرُ ممّا سَبَق، ولا سيّما أنّ أَمْرَ ترفيع أعضاء الهيئة التّدريسيّةِ في قانون تنظيم الجامعاتِ واللاّئحة التنفيذيّة واضحٌ رَحْبٌ وبعيد عن التّضييقِ الّذي يُلْحَظُ في هذا القرار الّذي لا شكَّ في أنّ الغاية منه -كما سَلَفَ- نبيلةٌ.

****

وأمّا رسالة الشُّكر والعِرفانِ فَمُوَجَّهةٌ إلى الخطّاطِ العالميّ العربيّ السوريّ الأستاذ **عدنان الشيخ عثمان**، إذ سبقَ أن دار حديثٌ بيني وبينَ زميلٍ مهتَمٍّ بالفنون، وتطرَّق الحديثُ إلى الخطّ العربيّ وكونِهِ فناً من الفنون التّشكيليّة إلى جانبِ وَظيفتِه الّتي يؤَدّيها كما تؤدّيها خطوطُ الأمم الأُخرى، وجرى ذِكْرُ أعلامِ الخطّاطينَ قديماً وحديثاً وما أبدعوا وطوّروا، وعلمتُ منه أنّه على صلة بهذا الخطّاط الّذي اكتسَبَ شُهرةً وتقديراً واسعَينِ في بلدِه سورية وسائرِ الوطنِ العربيّ والعالَم.

وقد سرَّني بعدَ مُدّة أن أجِدَ ذلك الزّميل قادِماً إلى مقرّ مجلَّة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانيّة ومعه لَوحةٌ جميلةٌ بخطّ الأستاذ عدنان، كتب فيها اسمَ المجلةِ وأنّها مجلّة علميّة دَوريّة محكَّمة، إهداءً منه إلى المجلّة، وهي اللّوحةُ الّتي استبدلتها المجلّةُ في عددها هذا بالخطِّ الطّباعيّ الّذي كان على غلافها في الأعداد السّابقة؛ فللأستاذ عدنان جزيل الشُّكْرِ على بادِرَتِه الطّيِّبة وأريحيّتِه.

ومن بابِ الشُّكرِ والوفاءِ أن يُذْكَرَ هذا الفنّانُ ويُقَدَّمَ إلى قُرّاءِ المجلّة، وإنْ كان غنيّاً عن التّعريف لدى أهلِ الاختصاص، فهو– كما يُستَفادُ من موقعه الخاصّ ومن المواقع المخصَّصة للخطّاطين والمبدعين العرب على الشابكة (الإنترنت)- من أهمِّ الخطّاطين المَدْرَسِيّينَ والمجدّدين في الوقتِ نفسِه على مستوى الوطن العربيّ و العالَم، وهو واحدٌ من الخطّاطين القلائلِ الّذين يكتبون الخطوطَ العربيّةَ جميعَها بإجادة مُتَقارِبة، إذ نلمحُ عنده الضّبطَ المحكَمَ لقواعد الخطوطِ العربيّة مع روحِ التجديد والابتكار والشَّطَحاتِ الفنّيّةِ الخاصّة الّتي لا تَكاد تَخلو منها لَوحَةٌ من لَوحاته ، وهو صاحب أسلوب جديد في خطوط الثُّلُثِ الْجَلِيِّ والتَّعليقِ والدِّيوانيِّ والنَّسْخِ والرُّقْعةِ والإجازةِ، وأمّا في الجَلِيِّ الدِّيوانيِّ فهو رائدُ المدرسةِ العربيّةِ الحديثة الّتي تتّسِمُ بالمرونة الفائقة والجمال المُتْرَف.

وُلِدَ الخطّاطُ عدنان الشيخ عثمان في حمصَ عامَ 1959، وتلقّى فيها العلم، وكان والدُه رسّاماً بارعاً في فنونِ الزَّخرفة الإسلاميّة، فتعلّم منه الأناةَ والإتقان، وشجّعه على الإبحار في محيطِ فنِّ الخطِّ العربيّ، فتعلّم هذا الفنَّ على آثارِ مشاهيرِ الخطّاطين من أمثال ممدوح الشريف

وبدوي الدّيرانيّ وسيّد إبراهيم وحُسني البابا، فكان يُحاكيها رَسْماً ، ثمّ اطّلع على مَدارِسه الكبرى العربيّة والتّركيّة والفارسيّة، فأتقنها علماً وعملاً، ثم اتّخذ لنفسه من مجموعها أسلوباً خاصّاً مُبتكَراً، سالكاً فيهِ مَسْلَكاً (عصاميّاً) بِلا أستاذٍ مُعَيَّنٍ ولا مَيْلٍ إلى مدرسة محدَّدة ولا تعصُّب لأسلوبٍ ما؛ وقد شاركَ في كثيرٍ من المَعارِضِ والمِهْرَجانات الدَّوْليّة، منها مِهرجانُ كاظمةَ بالكويت 1417هـ = 1997م، والملتقى الأولُ للخطّاطين العرب ببيروت 1420هـ = 2000 م، ومعرِض الكويت الدوليّ للفنون الإسلاميّة 1427 هـ = 2006 م، ومهرجان الجزائر عاصمةً للثقافة العربية 1428 هـ = 2007 م، ومهرجان الجزائر الدوليّ للخطّ العربيّ 1429 هـ = 2009 م، وأقامت له وزارةُ الثقافة في القطر العربيّ السوريّ مع رابطة الخطّاطينَ السُّوريّينَ مَعرِضاً تكريميّاً عام 1418هـ = 1998 م، مُنح خلالَه شهادةً تقديريّةً اعترافاً بجهوده في خدمة فنِّ الخطِّ العربيّ، وقد عملَ أستاذاً لفنِّ الخطِّ العربيِّ في كلّيّة الفنون الجميلة بجامعة دمشق؛ وبلغت الجوائز الّتي أحرزها ثلاثَ عَشْرةَ جائزةً دوليّةً ،أَبْرَزُها جائزة المركز الأوّل في الثُّلُثِ الجليّ ،وفي الدّيوانيِّ الجليِّ، كما نال مكافأةَ (إرسيكا الدَّوليّة للتميُّز) في فنِّ الخطِّ الثُّلُثِ الجليِّ المُتَراكِبِ عامَ 2001م.

وهو فضلاً عن كونه خطاطاً مبدِعاً يتميّزُ بصوتٍ رخيم، ويتمتَّعُ بعلمٍ سَماعيٍّ بالمقامات الموسيقيّة وطرائق الإنشاد، إلى جانب أنّهُ أديبٌ يكتب الشّعرَ والنّثرَ الفنّيّ؛ وممّا يكشِف هذا التّكامُل بين الفنون عند هذا الخطّاط المبدع، مع أسلوبه الأدبيّ في التّعبير ما جاء في إجابته عن سؤالٍ حول الرّابطة بين الأدب والموسيقى والخطّ العربيّ، أنقُلُه شبْهَ كاملٍ بِشَيءٍ قليلٍ من التّصرُّف لِما فيه من فوائد، إذ يقول:

" إنَّ العالِمَ المبدِع - أديباً كان أو موسيقيّاً أو خطّاطاً - يدفعُه طموحُه المتّقِدُ ونفسُه الوثّابة وهمّته العالية إلى تَوْجيهِ همِّه واهتمامه نَحوَ المِنْطَقةِ العلميّة الفنّيّة الّتي لم يُحرِزْها ولم يسبِرْ أغوارَها بعدُ، فيرى نفسَه مقصِّراً أيَّما تقصيرٍ، بينما يراهُ النّاس محلِّقاً أيَّما تحليق، ولا يلتفت أبداً إلى الوراء؛ لأنّ الالتفاتَ من شأنه أن يُذكِّره بإنجازاته، فيُضيعَ الوقتَ الثَّمينَ وهو يستعرضها متلذِّذاً، وقد يقع في العُجْبِ والغرور...

وقد قيل: مُستَقَرُّ الفنون والآداب ومستَوْدَعُها واحد، وهو (القَلْبُ العاقل)، ولكنّ دهاليز الوصول إليه تختلف بينَ فنّ وآخر؛ فالموسيقى والأدب يَلِجانِ القلبَ العاقلَ عن طريق إطراب (الأذن) وإثارةِ منطَقَةِ الخيال والتّصوُّرات، أمّا فنُّ الخطِّ فطريقُه إدهاشُ (العين) وإمتاعُ منْطَقَةِ الذَّوْقِ السّليم والارتقاء بها إلى سموات اللُّطف الروحيِّ بِقُوَّةِ النَّصِّ (الأدبيّة) وروعةِ هندسته (الفنّيّة)؛ وأما الشّاعر فيتلمس مَواطنَ الجمالِ حولَه، ويجنّد موهبتَه في تصويرها أجملَ تصويرٍ ممكن، ويُضفي عليها من خياله المجنَّح لَمَساتِ الإمتاع والسِّحر، ولا بدَّ له من التزامِ ضوابطِ اللّغةِ والقافية والوزن الشعريّ، لعلَّه ينشئ (وَحْدَةَ حالٍ) مع المتلقّي بإمتاعِ قلبه للوُصُولِ إلى إمتاع عقله، فإذا كان الموضوع الشعريُّ من الأهميّة بمكانٍ بحيث يتعلّق بالأمَّةِ كلِّها، سار إليه في الغالب على أشرعةِ (البحر البسيط) أو (الكامل) أو (الطّويل) المعروفةِ بأوزانها القويّة المؤثِّرة، وانتقى له قافيةً مُجَلْجِلةً ومفردات جَزْلَةً متينة، وأمّا إذا كان الموضوعُ داخلاً في باب (النَّجْوى) الشّخصيّة، فتراه يمتطي بحراً ناعمَ الإيقاع كـــ(الرَّجَزِ) أو (الرَّمَلِ) أو (الهَزَجِ)، وينتقي قافيةً حالِمَةً ومفرداتٍ سلِسَةً سهلة، وربما لجأ إلى شعر (التّفعيلة) العذب الانسياب.

وكذلك الموسيقيُّ يمتطي مَقامَ (الرَّصد) القويَّ أو (البيَات) للأعمال الكبرى، وينتقي للمقاطعِ الحزينة مَقامَ (الصَّبا) أو (الحِجاز)، ولأغاني الأطفال مقامَ (العَجَم) المُفرِح، ولِنَجْوى الحبِّ يُسعفُه مَقامُ (النّهاوند) النّاعمُ للتّعبير عمّا يَجِيشُ في صدره من عواطفَ دافئة.

والخطّاط المبدع الّذي يقضي عمرَه بين (بكاء قلمه وضحكة قِرطاسِه) لديه أيضاً خياراتٌ متشابهة: فخطُّ (الثُّلُث الجَلِيّ) بقوّته وشُموخه يناسب النّصَّ القويَّ الشّامخ، ولذلك نجد أنَّ معظمَ اللَّوحات القرآنيّة تُخَطُّ به، وخطُّ (التّعليق) و(الشّكسته) يُناغمانِ برقّتِهما وعذوبتهما الموضوعاتِ الشّعريّةَ، و(الدّيوانيُّ) و(الدّيوانيُّ الجليّ) بفَخامتهما وأُبَّهَتهما يصلُحان لكتابة ما هو موجَّهٌ إلى الشّخصياتِ المرموقة، و(النَّسْخُ) و(الرُّقْعَةُ) لبساطتِهما وسرعةِ أدائهما يناسبان المكاتباتِ اليوميّةَ السريعة.

وهذه قواعدُ عامَّةٌ، ولكنّها ليست فاصلةً أو مُنَزَّلة، إذ من الممكن تجاوزُها؛ إذ يمكن لبحور الشّعرِ الجَزْلَةِ أن تأخذَ مكانَ البحور النّاعمة، والعكسُ صحيح، وفي الموسيقى مثلاً يجوز

لِمَقامِ (الصَّبا) الحزينِ أن يُستعمَلَ في موضع الفرح، كما يجوز لِمَقامِ (العَجَمِ) المفرِح أن يُستعمَلَ في موضع الحزن، وذلك بحسَبِ بَراعةِ الشّاعرِ والموسيقيِّ وقدرتِهما على التّأثُّر والتّأثير؛ وبالمقابلِ يستطيعُ الخطّاط الحاذق أن يستبدل أماكنَ الخطوط تجاه موضوعاتها تبعاً لذوقِه الخاصّ؛ فالشأن كلُّه متعلّق بقوّةِ العمل الفنّيّ، أدباً أو قطعةً موسيقيّةً أو لوحةً خطّيّة، وهذه القوّةُ الفنّيّة من شأنها أن تدخُلَ من غير استئذانٍ مِن بوّابتَيِ الأذن والعين إلى قلب المتلقي وعقله".

و في خِتامِ رسالةِ الشّكر هذه أتذكّر (**بيكاسو**) زعيمَ الرَّسمِ الحديثِ إذ يقول: "**إنَّ أقصى ما وصلْتُ إليه في فَنِّ الرَّسْمِ وجَدْتُ الخطَّ العربيَّ قد سبقَني إليه منذُ أَمَد بعيد**"، ولا أتذكّر ذلك لأنّنا يجب أن ننتظر شهادةَ الآخَرِينَ أو اعترافَهم بنا أو تقويمهم لنا، بل لأؤكّد أنّ **ما لدينا يستحقُّ احترامَنا قبلَ احترامِ غيرِنا**.

وبَعْدُ، فهاتانِ رسالتانِ دفعني إليهما الحبّ والاحترام والتّقدير لِكلِّ مَن يَعْمَلُ جاهداً لِما فيهِ خيرُ الوطنِ كلِّه، أفراداً ومؤسّساتٍ، إداريّينَ وباحثينَ ومُبْدِعين.

رئيس التّحرير

أ. د. محمّد شفيق البيطار